المحور الرابع : التربية والتكوين

يقول الحسن البصرى رحمه الله : « رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه اعتتب وأناب ورجع من قريب » (١) .

بهاته الحكمة العطرة نفتتح هذا المحور،باعتباره فى غاية الأهمية،فمن لا تكوين له لا يستطيع الاندماج فى عالم تتصارع فيه الأهواء والمصالح والأفكار والمذاهب وإن كان تقيا عالما ذا خلق عظيم ، فقد شق عليه أن يتلون مع كل لون، ويتكيف مع كل نفس ، وينسجم مع كل إنسان،ويراعى على حسابه نزوات الغير، ولكن هناك فرق بين موقف وموقف . فاللين والتغاضى مقترنان بالصبر الذى يكفل الهدوء ، ويبعد عن الاصطدام . والنفس الإنسانية محشوة بكل ذميم من الصفات ،من رياء وكذب ، ومن خبث ولؤم ، ومن الظهور والسيطرة ، ومن ظلم وهضم للحقوق ، والإنسان مجبول على حب نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، وهو كما قال أبو العتاهية :

كل امرئ فى نفسه أعلى وأشرف من قرينه

والإنسان مبغض لخصمه فهو لا يرى إلا مساوئه ، بل قد يشتد به حبه لنفسه حتى لا يرى مساويها محاسن ،فكن كما قال الله تعالى : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ** ﴾ [فاطر: ٨] . وكما قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤] ، بل أكثر من هذا أن الإنسان يشتد به بغض خصمه حتى يرى محاسنه مساوئ ، فيكون كما قال الشاعر :

واذا شَنِئْتُ فتى شَنِئْتُ حديثه وإذا سمعت غناءه لم أطرب

وكما قيل :

نظروا بعين عداوة ولو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

(١) البيان والتبيين ج ١ .

والجدير بالذى يتوق إلى الكمال البشرى أن يتهم هذه النقائص ، ويعتبرها أمورا واقعية لا تخلص منها النفس البشرية مهما حاول ومهما بذل ، فلا تَفْجَأهُ زلة أو إساءة ، وبذلك يجنب نفسه ما قد يعرضها للخصومات وسوء التفاهم بالدفع بالتى هى أحسن ، ويتدارك الموقف بما أتاه الله من علم وفطنة وذكاء : وجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى مجلسه يوما رائحة من بعض جلسائه فقال: عزمت على صاحب . . . إلا قام فتوضأ . فقال جرير بن عبد الله :علينا كلنا فَاعْزَمْ يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : عليكم جميعا عزمت ، ثم التفت إلى جرير فقال : يا جرير مازلت سيدا فى الجاهلية والإسلام (١) .

لقد كان فى هذا الأمر العاجل إحراج لصاحب الرائحة ، ولكن بطانة الخير ، والجلساء الأمناء المخلصون يدرؤون عن ولى الأمر مغبة العجلة ، فيتدخل أحدهم بما ينقذ الموقف ، وقدر عمر ما فى النصيحة من دقة ولباقة وإنقاذ من حرج ، فتقبل راضيا لصاحبها مثنيا عليه لما ألهمه الله من رقة ، ومراعاة لمشاعر الناس ، وترفق بهم .

فالعبقرى إذن يتقبل النصح ،ولا يتعالى على ناصح ، يشعر فى المجلس بمكانة جلسائه عنده،ويجعلهم يشعرون بهذه المكانة،فيتعرضون ويقترحون وينصحون ويعبرون عن آرائهم فى حرية وانطلاق،لا تعوزهم الجرأة ولا تنقصهم الصراحة ، ولا يحرجهم ولا يوردهم موارد الخجل أيا كان الحال وانما يتذوق كل جميل ، ويعطف على الآراء،ويعرف ما يرضى الجليس فييسره له،وما لا يرضيه فيجنبه إياه ، يتحسس خلجات نفس الإنسان الموهوب ليبدع ويخلق ويجيد . . . وإن هوجم بأسلوب نَاب فلا ينفعل ولا يقابل الإساءة بالإساءة ،ولكنه يدفع عن نفسه ولا يقول إلا حقا،حتى لا يعين الشيطان على مسلم سار به الغضب مسيرة هوجاء . . .

تربية نموذجية توجه صاحبها توجيها إسلاميا كريما قويا ، فيكظم غيظا هو قادر على إنفاذه . ولو أننا ونحن نقرأ القرآن قراءة المتدبر الطائع ، ولو أننا نعمل بما نعلم لابتعدنا فى معاملاتنا الخاصة والعامة عن كثير من الشرور والأضرار،

(١) شهيد المحراب ص١٧٢ .

ولكننا نقرأ القرآن . . . عيوننا على الكتاب ، وقلوبنا فى حجاب ، لا نتدبر فى رقة خطابه ، ولا نلزم أنفسنا بأحكامه ، لا نكبد عقولنا جليل معانيه ونشغل سرنا وجهرنا بالإقبال عليه فى رغبة ومتعة وانشراح .

انظر كيف كانوا يتذوقون القرآن ، يقول طيب الجمال : صليت خلف سهل ابن عبد الله العتمة فقرأ : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] وجعل يحرك شفتيه وفمه وكأنه يمص شيئا فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شرابه ما قرأته[١] على هذا الفهم العميق والشعور الصادق، واليقين الكامل ، والتذوق البديع كانوا يقرؤون القرآن .

قلت : فالإنسان يستطيع أن يختط لنفسه خطا مستقلا فيبادل الخير بالخير ، ويدفع الشر عن نفسه بالحلم والأناة لئلا يتجاوز شره شر المعتدى ، ولئلا تنقلب الحياة فى مجالاتها إلى ميدان صراع .

إن مقابلة الشر بالشر خلق سقيم : مَنْ سبَّ مَنْ سَبَّه فقد ساواه فى النقيصة يقول رسول الله ﷺ : « المتسبان شيطانان يتكاذبان » [٢] ويقول : « إن الله يبغض الفاحش المتفحش» [٣]ولا يظهر الفضل فى الخلق إلا إذا أخذ الإنسان نفسه بالعفو، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾[القصص : ٥٥] فما عليك إلا أن تعامل الناس بإنسانية لتكون إنسانا، وتتجنب شرهم وتتقى ضررهم، وبذلك تثبت أنك المسير لإراداتك ، المخطط لحركة نفسك ،الناس فى معظمهم لا يعنيهم إلا من يلبى مطالبهم، ويحقق حاجتهم ، والإنسان الذى يريد الحياة ، ويطلب العزة ، والكرامة يربأ بنفسه فلا يسترسل مع المسترسلينَ ، ولا يعامل بفظاظة من يعاديه .

فالإنسان فى حد ذاته مرآة تتجلى فيها المعانى والغايات والنزعات ، وفيه تجد الكثير الذى يغنيك عن كل كتاب . فراقب إشاراته وحركاته وطريقة كلامه لتعرف

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٩٤ .
(٢) الطبقات ٧ / ٢٣ .
(٣) الاستيعاب ١ / ٣٤ .

منها الطبع والعادة والخلق ، ثم قارن بينها لتعرف الكثير الذى خفى ، فإذا عرفت فلا تقلد ولا تحاكى لتحفظ لنفسك استقلالها كاملا غير منقوص وإذا علمت طبيعة الإنسان عند هيجانه ورد فعله فتمسك بفضيلة الصبر ، بالإغضاء قدر الإمكان ، وعدم المغالاة والتقليل من العنف فالقول اللاذع مقدمة لتبادل الحقد ، فإذا سمعت الهجو فابتسم ، وبذلك يسمو قدرك فى نظرك ونظر الخصم ونظر الناس ، لا تُبَددْ طاقتك فى البحث عما يمكنك من كيل الصاع صاعين لتقول : « هاأنذا انتقمت » فتلك غريزة حيوانية وحشية تتلذذ فى أعماقنا ولكن متى فكرنا بإنسانية نجدها تافهة فدع الخصم يحترق على نار الحقد. وابتسم تبتسم لك الدنيا .

صحيح أن الإنسان بطبيعته تتفاعل فيه قوى الخير والشر ، ولكن ينبغى أن نعلم إرادة الخير التى تشد من عزيمة الإنسان ، وتمكنه من التفوق على الحقد ، وتجعله أمينا على نفسه ، متقيا للشرور ، فإرادة الخير قوة مغناطيسية تجذب إليها حتى من لم يفطر على الخير ، وتجعله ذا عقل راجح ، قادرا على الصبر بحلم الحليم ، وأناة المتأنى ، ووعى الواعى .

ما أجمل الصمت متى كان فى محله، فهو تعبير صادق عن المظهر الحسن المستقيم، إنه صمت عاقل مدرك يعبر بأصدق بيان عما يراد تبيانه وللصمت علم قائم بذاته، فتعلم فن السكوت. واصمت متى وجب السكوت، ولاشك أن خير الكلام ما قل ودل .

وقد تتعرض لسوء التفاهم مع الآخرين ،وهذا شىء طبيعى لأننا - معشر البشر- لا نفهم نيات سوانا، وتفهم النيات عمل صعب لا يتحقق إلا لماما، لأن غور الإنسان بعيد، وفى غوره أمورا لايفهمها غيره ،وقد لا يفهمها هو نفسه. وقد تدعى إلى المجالس فيطلب منك إلقاء كلمة وعظ وإرشاد. فاعلم أن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلة، وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانة سلبوه فضيلة علمه، ووسموه بقبيح تبذله، والناس من طبعهم تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ فلا ينصفون محسنا، ولا يحابون مسيئا، لاسيما من كان بالعلم موسوما، وإليه منسوبا، فإن زلته لا تقال، وهفوته لا تعذر لقبح

أثرها أو لاغترار كثير من الناس بها . ولأن الجهال بذم العالم أغرى، وعلى تنقيصه أحرى ليسلبوه فضيلة التقدم عناداً لماَ جهلوه، لأن الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذما [١]، وإذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير العوام وتنقيص الأعداء، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة، وعزة النزاهة، فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله. وبهذه التربية والتكوين توحى للغير باستعداداتك الطيبة، فيتم التجاوب ويتحقق التجاذب، وتكون أنت الغالب ورأيك هو السائد دون أن يكون أى رد فعل سيئ . وهذا ما نعرفه من سير العظماء أنهم اجتذبوا الآلاف وكيفوهم لأنهم أقوى منهم تربية وتكوينا.

وعلى العالم ألا يمنح الجهال علمه حتى لا يضيعه « فواضع العلم فى غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجواهر والذهب » وحكى أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له: لم منعته؟ فقال : لكل تربَة غرس، ولكل بناء أس ولكل ثوب لابس ولكل علم قابس.

وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته،وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعُفَ عنه ببلادته فإنه أرْوحَ للعالم وأنجح للمتعلم. وإن لم يتوسم العالم متعلميه وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا وإياه فى عناء مكد، وتعب غير مجد . وخير العلماء من لا يقل ولا يمل، وكل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى . عن جابر بن سمرة قال : جالست النبى ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أن أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون شيئا من أمر الجاهلية وهو ساكت فربما تبسم معهم[٢].

عن عكرمة أن ابن عباس قال:« حدث الناس مرة فى الجمعة،فإن أَبَيْتَ فمرتين فإن أكثرت فثلاثا،ولا تمل الناس هذا القرآن،ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى حديث من حديثهم فَتَقْصَّ عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتُملَّهُمْ ولكن أنصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه،وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإنى عهدت

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٠ .

(٢) للترمذي وقال : حسن صحيح كذا فى سننه ٢/١٠٧ .

رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك » (١).

وعن شقيق كان عبد الله يُذَكِّرُ الناس فى كل خميس فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم ، وإنى أتخولكم بموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا (٢) .

هذه أصول فى ترتيب حلقات العلم و الوعظ والتذكير . والذى أراه للربانى أن يجعل للحلقة ثلاث جلسات : جلسة للعربية ولعلوم القرآن ، وجلسة للحديث والسيرة ولعلوم الحديث ، وجلسة للفقه بأنواعه كلها (٣) .

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال: « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » (٤) .

وعنه أنه قال: " إن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله،ولا يؤمنهم من عذاب الله،ولا يرخص لهم فى معاصى الله ، إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولاخير فى علم لا فهم فيه ، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها» (٥).

وعن كثير بن مرة قال : « لا تحدث الباطل للحكماء فيمقتوك ، ولا تحدث الحكمة للسفهاء فيكذبوك ، ولا تمنع العلم أهله فتأثم ، ولا تضعه فى غير أهله فتجهل إن عليك فى علمك حقا كما أن فى مالك عليك حقا » (٦) .

وعن ابن مسعود قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» هذان أصلان يحددان طبيعة العطاء العلمى وأنه ينبغى أن يراعى فيه حال السامعين وعن ابن مسعود قال : « إن الذى يستفتى الناس بكل ما

---

(١) البخارى انظر : آداب العلم السؤال والقياس والفتيا ١/ ٤٢ رقم (٢٣٥) .
(٢) رواه الشيخان والتزمذى انظر : الموضع السابق ١/ ٤٢ رقم (٢٢٤) .
(٣) مذكرات فى منازل الصديقين والربانيين .
(٤) رواه البخارى نفس المرجع (٦٢) .
(٥) رواه الدارمى نفس المرجع .
(٦) رواه الدارمى نفس المرجع (٦٢) .
(٧) لمسلم نفس المرجع ٦٢ .

يستفتونه فيه مجنون » (١) وقيل :« إن من إهانة العلم أن تجارى فيه كل من جاراك» وعن أبى هريرة أنه قال : «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البلعوم » (٢)، وهذان أصلان فى أن ما كل ما يعلم لا يقال . . وفى أن العالم قد يعلم حقائق فيكتمها لما يترتب على ذلك من أضرار،ولكن هذا مخصوص فيما ليس مفروضا أن يبلغ،فيما يتعلق بأمر الفتن والنص على أعيان المرتدين والمنافقين مما لا يتعلق بالبينات والهدى (٣) .

وعن عمران بن حصين أنه قال:سمعت من رسول الله ﷺ أحاديث وحفظتها ما يمنعنى أن أحدث بها إلا أن أصحابى يخالفونى فيها » (٤) وهذا أصل فى ترك الكلام فيما يعتبره الناس شاذا،فى ذلك يقول على رضي الله عنه:«لا تفعل ما يسبق إلى العقول إنكاره وإن كان عندك اعتذاره » (٥) ،وعن سعيد بن المسيب أرسله أن النبى ﷺ قال: «الشيطان يَهَمُّ بالواحد وبالاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهمَّ بهم» [لمالك].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده :« الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب » [لمالك وأبى داود والترمذى] .

وهذان الحديثان أصل فى أن الجلسة ينبغى ألايقل عدد أفرادها عن ثلاثة .

وعن ابن مسعود أنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بقوله :﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الحديد :١٦] إلا أربع سنين (٦) هذا أصل فى أن أربع سنوات كافية لينضج المسلم ظاهرا وباطنا .

وعن أسامة الهذلى رفعه أن النبى ﷺ قال : « إذا شهدت أمة من الأمم وهم أربعون رجلا فصاعدا أجاز الله شهادتهم أو قال : صدق الله بشهادتهم » (٧) .

هذا أصل يستفاد منه أن أربعين من العدول التقاة يصلحون أن يكونوا حجة

---

(١) للكبير نفس المرجع (٦٥٦٢) .
(٢-٣) للبخارى انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٢٤ .
(٤) مجمع الزوائد ١/ ١٤١ .
(٥) مذكرات فى منازل الصديقين والربانيين ص٦٧ .
(٦) تفسير ابن كثير الآية ١٦ من سورة الحديد .
(٧) الفيض ١/ ٣٨٨ .

على استقامة طريق ، وأن يكونوا نواة لعمل الخير والقيام بأمر الدعوة إلى الله بل والجهر بها ، وفى السيرة النبوية لما بلغ عدد السابقين إلى الإسلام أربعين رجلا جهر رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله تنفيذا لقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] ،هذه أمور تنظيمية لابد للمرء من معرفتها .

وقد تسوق الأقدار العالم إلى مجالس السلاطين وأهل الحكم رغبة منهم فى العلم فلا يجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عندهم والإدلال عليهم ، بل يعطى للسلطان ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فإن للسلطان حق الطاعة والإعظام، وللعالم حق القبول والإكرام ، ثم لا ينبغى أن يبتدئه إلا بعد استدعاء ، ولايزيده قدر الاكتفاء ، فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره فصار ذريعة إلى مللِه ، ومفْضِيا إلى بُعَدِه فإن السلطان متقسم الأفكار ، مستوعب الزمان ، فليس له فى العلم فراغ المنقطعين إليه ، ولا صبر المنفردين به [١] .

وقد حكى الأصمعى رحمه الله قال :« قال لى الرشيد : يا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك ،فلا تعلمنا فى ملأ ، ولا تسرع إلى تذكيرنا فى خلا، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ، فإذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد إلا أن نستدعى ذلك منك ، وانظر إلى ما هَوَ ألطف فى التأديب ، وأنصف فى التعليم ، وأبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم » [٢] .

وإن ظهر من السلطان خطأ أو زلل أو عمل لم يُجَاهرْهُ بِالرَّد ، وعرض باستدراك زلله وإصلاح خلله. ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ، ومتابعة لهواه ، فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب ، والقناعة بالميسور عن كد المطالب ، فإن شبهات المكسب إثم ، وكد الطالب ذل ، والأجر أجدر به من الإثم ، والعز أليق به من الذل .

وأنشد بعض أهل الأدب لعلى بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى :

(١ ، ٢) أدب الدنيا والدين ص٥٤ .

يقولون لى فيك انقباض وإنمـــــا رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكـــــرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صَيَّرْتُه لىَ سلـــــــــما
وما كل برق لاح لى يستفـــــزنى ولا كل من لاقيت أرضـــاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قـــد أرى ولكنَّ نفسَ الحر تحتمل الظـــــما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مُهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأخـــدما
أأشقى به غرسا وأجـــنيه ذلـــــة إذا فاتباع الجهل قد كان أحـــــزما
ولو أن أهل العلم صـانوه صَانَهُمْ ولو عظموه فى النفوس لعظـــــمَا
ولكن هـــــانوه فهـان ودنسوا محياه بالأطماع حـــتى تجـــهما

ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم مَنْ علموا ،ولا يلتمسوا عليه رزقا ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [البقرة : ٤١] وهو مكتوب عند بنى إسرائيل فى الكتاب الأول :« يا بن آدم عَلم مجانا كما علمتك مجانا » ومن آدابهم نصح من علموه،والرفق بهم ، وتسهيل السبيل عليهم ، وبذل المجهود فى رفدهم ومعونتهم ، فإن ذلك أعظم لأجرهم،وأسنى لذكرهم ،وأنشر لعلومهم ، وأرسخ لمعلومهم وقد قال النبى ﷺ لعلى : « يا على لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس » (١) .

ومن آدابهم ألا يُعَنفوا متعلما ، ولا يحقروا ناشئا ، ولا يستصغروا مبتدئًا فإن ذلك أدعى إليهم ، وأعطف عليهم ، وأحث على الرغبة فيما لديهم . وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « عَلِمُوا ولا تُعَنفَّوا ، فإن المعلم خير من المُعنف وَوَقَروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعَلّمُونَهُ » .

ومن آدابهم ألا يمنعوا طالبا ، ولا ينفروا راغبا ، ولا يؤيسوا متعلما لما فى ذلك من قطع الرغبة فيهم ، والزهد فيما لديهم ، واستمرار ذلك مفض إلى

(١) أدب الدنيا والدين بتصرف ص٥٧ وما بعدها .

انقراض العلم بانقراضهم [١] وألا يعلموا الكافر القرآن والعلم حتى يُسْلِم ، والمبتدعَ الجدال والحُجج ليجادل به أهل الحق ، ولا الخَصْمَ حجة على خصمه ليقطع بها ماله ولا السلطان تأويلا يتطرق به إلى مكاره الرعية ، ولا ينشر الرخص فى السفهاء فيجعلوا ذلك طريقا إلى ارتكاب المحذورات وترك الواجبات [٢] .

إيجاد الحلول لمشاكل العباد وتدارك المواقف :

الجدير بالذى يتوق إلى مراتب العباقرة أن يجد الحلول للمشاكل الطارئة بعلمه وفهمه وَسَعَة صدره ، ويتدارك الموقف قبل فوات الأوان وضياع الفرصة السانحة وما أقلها ، وما أعظم المغتنمين لها . قد مر بنا مثال عبد الله بن جرير مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما .

ولنا فى رسول الله ﷺ القدوة الحسنة: ما رد أحدا خائبا أبدا ، وما قال : لا لأحد ما لم يكن فى ذلك إثم ،وما انتقم لنفسه قط إلا أن تُنْتَهَكَ حُرمات الله ، وهذه نماذج من سيرته ومواقفه العطرة :

الإنفاق :

روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه،قال رسول الله : « ما عندى شىء ولكن ابْتَعْ على فإذا جاء شىء قضينا » . فقال له عمر : «هذا أعطيت إذا كان عندك فما كلفك الله ما لا تقدر » فكره رسول الله ﷺ قول عمر ، فقال رجل من الأنصار : " يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا » فبتسم رسول الله ﷺ وعُرِف السرور فى وجهه لقول الأنصارى ثم قال ﷺ : « بذلك أُمِرْت » .

وروى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت: قال لى رسول الله ﷺ: « أنفحى أو انضحى أو أنفقى ولا تُحصى فَيَحْصِى الله عليك ولا تُوعى فَيوعِى عليك » وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىَّ سائل مرة وعندى رسول الله ﷺ فأمرت له بشىء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله ﷺ : « أما تريدين ألا

(١) أدب الدنيا والدين بتصرف ص٥٧ وما بعدها .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٧٥ .

يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك ؟ ». قلت:نعم ، فقال رسول الله ﷺ : «مهلا يا عائشة لا تحصى فيحصى الله عز وجل عليك » (١) .

قال العلماء رحمة الله عليهم : « خوف الإقلال من سوء الظن بالله ، لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ، وقال فى تنزيله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة :٢٩] وقال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْه ﴾ [الجاثية:١٣] ليكون لله عبدا كما خلقه عبدا ، فإذا كان العبد يحسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأن الله لا يخلف وعده لقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] ، وقال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى :« سبقت رحمتى غضبى ، يا بن آدم أنفق أنفق عليك يمين الله ملأى سحا لا يَغيضُهَا شيء الليل والنهار »، وقال النبى ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما :اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا . وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله (٢) .

فمن استنار صدره ، وعلم غنى ربه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال، وكذلك من ماتت شهواته عن الدينا واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئته لنفسه، فهذا يعطى من يسره وعسره ولايخاف إقلالا وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء، فإذا أعطى اليوم، و له غدا مشيئة فى شيء خاف ألا يصيب غدا، فيضيق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله (٣).

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفَدَ ما عنده قال :« ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم، ومن استعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعْطَى الله أحدا عطاءً هو خير له وأوسع من

(١ ـ ٣) الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٧٤ .

الصبر» [١] .

من رزقه الله خلقا فاضلا وصدرا متسعا لا يرد أحدا على أعقابه خائبا أبدا ولو بكلمة طيبة، فإن بخل بها فليس أهلا لبلوغ أعالى الدرجات. يقول رسول الله ﷺ:«اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة».[٢] وقال عمر رضي الله عنه: « البر شيء هين : وجه طليق وكلام لين » وقال بعض الحكماء : «الكلام اللين يغسل الضغائن الساكنة فى الجوارح» و« كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين».

ورد فى صحيح البخاري أن رجلا جاء قبل الصلاة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، لقد ارتكبت حَدًّا «ذنبا» فلم يجبه النبى ﷺ فلما صلى ناداه عليه السلام فقال:« ألم تكن صليت معنا ؟ » قال: بلى يا رسول الله ، قال : « اذهب فقد غفر الله لك».

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، لقد هلكت من كثرة الذنوب، فلم يسأله النبى عنها وإنما قال له :« قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ورحمتك أرجى عندى من عملى »، فقالها ثلاثا فقال له ﷺ :«اذهب فقد غفر الله لك».

وروى النووى فى كتاب ابن السنى عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :شكوت إلى رسول الله ﷺ أرَقًا أصابنى فقال :« قل: اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون، وأنت حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ياحى يا قيوم أهد ليلى وأَنِمْ عينى»، فقلتها فأذهب الله عز وجل عنى ما كنت أجد.

وكذلك هديه ﷺ مع المهموم والمسحور والمريض والمصاب بالعين والفقير وذوى الأمراض النفسية والأخلاقية وغيرها. فلكل داء عند رسول الله ﷺ دواؤه، وكل مشكل له حله، وما أغلق الله بابا إلا ليفتح أبوابا.

---

(١) الترغيب والترهيب .

(٢) متفق عليه .

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى النبىﷺ قسوة قلبه فقال: « امسح على رأس اليتيم وأطعِم المسكين» (١) . ففى الحديث دواء مناسب لوضع معين ، فانظر كيف أن رسول الله ﷺ أعطى لهذا الإنسان الشاكى الدواء المناسب لحاله.

والداعية ذو العقل اليقظ والحس المرهف يستطيع أن يتدارك الموقف فيحقن دماء من السيلان، ويحفظ أعراضا فلا تهان ويدع عجلة الزمان تسير سيرها الطبيعى كما أراد الله وَقدَّرَ وبهذا التكوين الربانى نادى رسول الله ﷺ يوم فتح مكة أن «من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن»ويْحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن كاتبا كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض فقال له عمر:«خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإنى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتُها من نفسى»(٢) هذا التواضع لا شك أنه مقتبس من هدى النبى ﷺ الذى قال لأعرابى دخل عليه فَتَهَيَّبَ منه: «هَوِّنْ على نفسك فلستْ بملك ولاجبار وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة».

ومر رسول الله ﷺ يوما على أصحابه فهبوا له قياما فغضب غضبا شديدا وقال: « مَنْ سَرَّهُ أن يتمثل الناسْ له قياما فليتبوأ مقعده من النار » فلما رأى حسان ابن ثابت غضبة رسول الله ﷺ تدارك الموقف وقال :

قيامى للعزيز عَلَىَّ فرض وترك الفرض ما هو مستحيل
عجبت لمن له عقل وفهم يرى هذا الجمال فلا يقوم

وقال أنس رضي الله عنه :سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر قال:«سلونى لا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به » فقام إليه رجل فقال :يا رسول الله من أبى ؟ فقال:« أبوك حذافة » ، فقام إليه شابان أخوان فقال: يا رسول الله من أبونا ؟فقال:« أبوكما الذى تدعيان إليه »، ثم قام رجل آخر فقال:يا رسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال :« لا بل فى النار » فلما

(١) تربيتنا الروحية ص٢٨٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن تفسير الآية « ٣٢ »من سورة القصص .

رأى الناس غَضَبَ رسول الله ﷺ أمسكوا، فقام عمر رضي الله عنه وقال :« رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا»، فقال النبى ﷺ:« اجلس يا عمر رحمك الله إنك ما علمت لَمُوَفَّقٌ » (١) .

ويأتى رجلٌ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستفتيه قائلا : « إن ابنتى كانت قد أصابت حدا من حدود الله ، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى بَرئ ثم تابت بعد توبة حسنة ، وهى اليوم تخطب إلى قوم ، أفأخبرهم بالذى كان ؟ فيجيبه عمر قائلا : « أتعمد إلى ما ستره الله فَتُبْدِيه؟ والله لئن أخبرت بها أحَدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، اذهب وأَنْكِحْهَا نِكاح العفيفة المسلمة » (٢) .

إنه خلق القرآن الذى أَعْلَنَ أنه إنما أنزل لإصلاح أحوال الناس ،ولذلك وردت الأوامر والنواهى :﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف :١٥٧]. وقد روعى فى التشريع الإسلامى ثلاثة أسس لابد للمسلم من مراعاتها :

الأول : عدم الحرج .

الثانى : تقليل التكاليف .

الثالث : التدريج فى التشريع .

فالمسلم لا يحرج أحدا مهما بلغت سلطته ومنزلته ولو كان نبيا رسولا أو أميرا للمؤمنين ،والأدلة على أن هذه الشريعة مؤسسة على رفع الحرج كثيرة كقوله تعالى يصف الرسول ﷺ : ﴿ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم**﴾ [الأعراف :١٥٧] وقوله تعالى فيما علمنا أن ندعو به ﴿**رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِه** ﴾ [البقرة :٢٨٦] وفى الحديث : « قال الله تعالى : قد فعلت » (٣) . وكقوله تعالى : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ**

(١) متفق عليه .

(٢) شهيد المحراب .

(٣) تاريخ التشريع الإسلامى ص١٨ .

نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ،وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]، وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج :٧٨] وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٢٨] ، وقوله سبحانه: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة :٦] ، وقوله تعالى : ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: ٦٦] وفى الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

ومن شمائله عليه السلام :« ما خُير بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثما » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث ، وقد عد الفقهاء رفع الحرج أصلا من الأصول التى اعتبرها الشارع ، واستنبطوا به أحكاما كثيرة ، وهو من الأصول المقطوع بها ، ومن أجله شرعت الرخص كالفطر للمسافر ، وإباحة ما حرم عند الضرورة والتيمم ، وتقليل التكاليف هو نتيجة لازمة لعدم الحرج ، لأن فى كثرة التكليف إحراجا ، والذى يشتغل بالقرآن يقتنع بصحة هذا الأصل فى عالم الأوامر والنواهى إذ يراها قليلة يمكن العلم بها فى قليل من الزمن ، وَيَسْهُلُ العمل بها ، وليست كثيرة التفاصيل حتى لا ينشأ من كثرتها إحراج الذين يريدون الاعتصام بكتاب الله المتين .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾ [المائدة :١٠١ ، ١٠٢] ،وهذه المسائل التى نهوا عنها أشياء عفا الله عنها وسكت عن تحريمها ، فيكون سؤالهم سبب تحريمها ومن ذلك قوله ﷺ وقد سئل عن الحج : « أفى كل عام؟ » فقال:« لو قلت نعم لوجبت ، ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» . ويدل على هذا التأويل قوله ﷺ : « أعظم المسلمين فى المسلمين جُرما من سأل عن شىء لم يحرم عن المسلمين فَحُرِّمَ عليهم من أجل مسألته» وقوله عليه السلام:«إن الله فرض فرائض فلا تُضَيِّعُوها،وحَدَّ حدودا فلا تعتدوها ،وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم

من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » (١) .

إنه الأدب الذى به يصلح السلوك ويصلح القلب ، ومن ثم فلا سير بلا أدب مع الله ومع الخَلْق ، ومن ثم قالوا :« والله ما فاز من فاز إلا بحسن الأدب ، ولا سقط من سقط إلا بسوء الأدب » .إن حسن الأدب أصلاً تعبيرٌ عن كمالات النفس وعن انضباطها وعن التحكم فى نزواتها ، وذلك وحده علامة خير . بينما سوء الأدب دلالة على أن النفس لا تزال متلطخة بِرعُونَاتِهَا ، عاجزةً عن الانضباط ضمن المسار الصحيح ،ولنضرب مثلا دالا على ضرورة الأدب مع الله ومع الإنسان ومع الحيوان ومبنيا على أن الأشياء إذا أحسنت التعامل معها خَدمتْكَ، وإذا لم تُحسن لم تخدمك وذلك باستعمالنا لآنية الوضوء ، فلو أنك استعملته بلطف أَخْذاً وَوَضْعا خَدَمَكَ كثيراً وإلا لم يَخْدُمْكَ . فإذا كان هذا مَحَلٌ حسن الأدب مع الأشياء فما بالك بالأحياء ؟ لا بد أن نتعامل مع كل شىء بالأصول الصحيحة على ضوء شريعة الله قبل كل شىء وبعد كل شىء .

لقد استطاعت بعض البيئات أن تصل إلى أمد بعيد من الآداب المتعارف عليها فى كل جانب من جوانب الحياة فى طريقة كلامها ، وفى طبيعة لباسها المناسب لكل مناسبة وفى طريقة التعامل مع الآخرين فى كل وضع وعلى كل حال . ونحن المسلمين أغنى الخلق بعلم الآداب على الإطلاق ، وأدبنا هو الأدب الأرقى بدون منازع ولكن هذه الآداب نجدها متناثرة هاهنا وهاهنا فى كتب الفقه ، وشروح الحديث ، وكتب التصوف وكتب التفسير ، ومن استوعب القرآن والسيرة النبوية استغنى .

أدب العلاقات البشرية :

كل سالك طريق المعالى واجب عليه أن يدرس البيئة التى يعيش فيها،ويعرف أوضاعها وتقاليدها،ويتعمق فى فهم مشكلاتها ونفسيات أهلها، وما يؤثر فيها،كما عليه أن يعرف لغتهم ليكلمهم بلسانهم ليأخذ مددا جديدا من كل ما حوله من وقائع الحياة اليومية.ذلك أن أدب العلاقات البشرية مهم جدا فى صلاح الإنسان وسعادته.وقد أصبح لهذا النوع من الآداب مدارس متعددة على

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ص١٩ .

حسب الاختصاص : فمدارس التمريض تعلم أدب الخدمة للمريض ، ومدارس العلاقات الدبلوماسية تعلم أدب العلاقات الرسمية بين أصناف شتى من الناس ، وهناك فى الجيوش آداب العلاقات بين الأدنى والأعلى، وعلى مستوى الحكم هناك الآداب الرسمية والتشريفات. والذين يكتبون فى الآداب يحاولون أن يعمقوا أنواعا من الآداب الاجتماعية أو يَدْعُوا إلى تغيير فيها، وأدبيات الشعوب وثقافاتها كل ذلك له صلة بأدب العلاقات. فأدب العلاقات والتعامل البشرى يشكل جزءا كبيرا من الهيكل العام للحياة البشرية، وقد تأخذ بعض الآداب طابع القانون أو العُرف .

والمسلم بَحَّاثَةٌ عن الكمال، والإسلام كمال ودافع نحو الكمال ، ولكل صورة حياتية فى الإسلام أدب، ودراسة الكتاب والسنة تضعك على الصراط المستقيم (١) والإنسان يعيش بشكل فطرى ضمن دوائر الأسرة والجوار والوظيفة والحرفة والمجتمع الواحد والعالم كله . والأصل فى هاته العلاقات التعاون وعدم المضارة، وتقديم البر والعدل والإحسان عملا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ [النحل : ٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣].

وما أحسن أن يسجل الدارس للبيئة والحالة ما يراه صالحا من أخبار الصحف ووكالات الأنباء، وتعليقات المعلقين، وتجاربه الخاصة والعامة، وأن يعدَّ لذلك سجلا يُدَوِّنُ فيه ما يهمه من هذه الوقائع والأخبار ، ويصنفها ويضعها عند الحاجة فى مكانها فإن أحداث اليوم هى تاريخ الغد الذى يدرسه الدارسون ويحلله الناقدون . بل يستطيع المرء أن يتلقى معلوماته عن الواقع من مصادره الحية المباشرة بلقاء الناس ومخالطتهم ومشاهدة أحوالهم ، والاستماع إلى أحاديثهم فى الحضر والسفر فإن السفر نصف العلم ، ولهذا كان علماؤنا الأولون أكثر الناس ترحالا فى طلب العلم من أهله فى مواطنهم . وقد قال الشاعر العربى :

يا بن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا (٢)

(١) انظر : المستخلص فى تزكية الأنفس ص٤٤٢ .

(٢) انظر: ثقافة الداعية ص١٤٦ .

إنها التربية الحقيقية التى تسعى إلى التأثير فى فكر الإنسان وانفعاله ونزوعه بغية الارتقاء بمفاهيمه وأخلاقه وسلوكه . ومن ثم كان لابد للسائر من الاستفادة بعلم وخبرة المربين وتجاربهم العديدة المتنوعة فى مجالات تعليم الكبار والصغار والانتفاع بالأصيل الجيد من أصول التربية وطرائقها فى حسن توجيه المخاطبين وإيصال المعرفة إليهم ، وكيف يمكن التأثير فى عقولهم وعواطفهم ، وإثارة حوافز الخير فى أنفسهم، ومطاردة نوازع الشر بين جنوبهم مع وجوب الاحتراز من النزعات الهدامة والشطحات المتطرفة فى الفلسفات التربوية الحديثة والمعاصرة .

وحتى يتحقق هذا الهدف النبيل لابد من معرفة الطريقة السيكولوجية الفعالة لاكتساب صفات الجرأة .

الطريقة لاكتساب صفات الجرأة :

معلوم أن الأساتذة والطلبة المنتمين إلى صفوف حسن الكلام والخطابة لا يتخلصون تماما من الخوف فى بداية خطبهم وحديثهم إلى الناس، فهو حاجز نفسى موجود قبيل الكلام - لا يسلم منه حتى المحترفون - إلا أنه يبقى بعض الوقت ثم لا يلبث أن ينمحى، فالمتكلم لا يألف مواجهة الناس، فهو فى حالة غير مألوفة، ولإزالة تأثير هذا الخوف لا غنى عن التمرين ثم التمرين كى يقتحم العقبة ، ويصبح الكلام مصدر متعة له بعد أن كان مصدر ألم وعذاب ، كما لا غنى له عن الاستعداد الكامل والثقة التامة بما يود أن يقوله .

وإنى على يقين بأن المتكلم الواثق مستعد لاقتحام قلعة الخوف بسلاح وعتاد الأبطال ،والإعداد لا يقتضى منك حفظ الكلام عن ظهر قلب وإلا أصبحت مدمن حفظ ، لأن الإدمان يشل مدارك المتكلم ويدمر فعاليته أمام الناس ، ولكن عليه أن يكتب عددا من الملاحظات على قصَاصَة ، ويتكلم بهدوء واطمئنان دون أن يستعين بنص منقول أو ذاكرة حافظة فقد تَخُونُه فَتُشينُهُ ، فإذا تكلم انثالت الكلمات طبيعية جميلة كالهواء الذى نستنشق والماء الذى نشرب والكلام المحفوظ خال من الرونق والإثارة لأنه لا ينبع من القلب .

فَتَكَلَّمْ بسجية ، وانْفَعِل مع كلامك ساعة الانفعال وكن هادئا ساعة الهدوء واقتنع بأهمية دعوتك وموضوعها ، فلن يتسنى لداعية مهما أوتى من قوة بيان أن يفوز بضالته إن لم يؤمن بالمبدأ الذى يدافع من أجله .

قد يحدث انقطاع عن الكلام فجأة لسبب من الأسباب أهمها الخوف الذى قيل عنه: «الخوف يهزم من الناس أفواجا لا حصر لها » (١) وهو فى الحقيقة تسليط سلبى يزعزع ثقتك بنفسك قبل أن تبدأ، فمن الأفضل أن تبتعد بانتباهك عن نفسك قبيل الشروع فى الكلام،وتركز على ما يقوله الغير حتى تتبدد مشاعر الخوف تدريجيا من خلجات نفسك ، فمحال إذن أن تنسى أو تتناسى ما أنت مقبل عليه .

وعلى المحاضر أن يسأل نفسه : هل الموضوع لائق بمن فى المجلس أم لا ؟ وهل يثير اهتمامهم ؟ فإن كان الجواب بلا فعليه استبداله بالذى هو خير .

وكلما خالج نفسيتك إحباط فقل : يا نفس حديثك الذى أنوى إلقاءه هو الحديث الأفضل لأنه صادر من تفكيرك وتجاربك،أنت المتأهل الأول بين الحاضرين القادر على إعطاء الموضوع حقه من البحث لكن فى غير كبر ولا غرور.

وَخذْ نَفَساً عميقا ، وتنفس ملء رئتيك قبل أن تواجه الجمهور لأن الكمية الكبيرة من الأوكسجين تشجعك وتُثَبِّتكَ ،وقد قيل :« متى اسْتَنْشَقْتَ النَّفسَ الطويل وجلست عليه لا يبقى للتوتر أثرا » .

انظر إلى الناس ، ثم تكلم بثقة وكأنك أقرضتهم مالا وتود استرداده . . . وعندئذ سيكون التأثير السيكولوجى عظيما ، حاول- وأنت تتحدث - أن تعطى المثل الواقعى المحسوس بضرب الأمثال ووصف ما علمتك الحياة من تجارب فإن أجمل ما يسمعه الإنسان وقائع الحياة ودروسها ، وأجمل منها ما غيّرَ مجرى حياتك أو حياة الآخرين وأوضح مثال على هذا إسلام سلمان الفارسى مثلا ، وإسلام عمر بن الخطاب ، إنها قصص تجذب الانتباه وتثير الإحساس . لأننا نحب أن نعرف كيف واجه غيرنا المشكلات ، ولأن حماسة المتكلم - وهو يصف

(١) الكلام لامرسون .

أحب شيء عنده - تنقل إلى المستمعين فيتحمسوا بحماسه وكأنهم شركاء معه لا مستمعين . ولا مرية أن المتكلم الذى يستمع الناس إليه برغبة هو الذى يضع أمام أبصارهم صورة تتراقص فيها أقواله ومعانيها ، وقد كان رسول الله ﷺ يخطب الخطبة فَتَجِلُ منها القلوب ، وتبكى لها العيون ، فما خرج من القلب يصل إلى القلب،وما خرج من اللسان لا يتعدى الآذان فهذا الحسن البصرى المولود سنة واحد وعشرين للهجرة ،جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثر فى قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهله فى المجتمع ، فقد كان واسع العلم غزير المادة فى التفسير والحديث ،ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس عصر الصحابة دراسة عميقة وأدرك روحه،وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامى ومن أين انحرف ،وكان مع ذلك غاية فى الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى مستمعيه، يقول أبو عمرو بن العلاء :« ما رأيت أفصح من الحسن البصرى والحَجَّاجَ بن يوسف والحسنُ أفصحُ منه » . وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم . قال الربيع بن أنس : « اختلفت إلى الحسن البصرى عشر سنين وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمعه قبله » . وكان رحمه الله يؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقده ، كلامه يخرج من القلب ويدخل إلى القلب وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة أدمع العيون وحرك القلوب ، قال عنه الإمام الغزالى :« ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم السلام وأقربهم هديا من الصحابة رضي الله عنهم ، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك » (١) ولا عجب فى ذلك فأبوه يسار مولى زيد بن ثابت صاحب رسول الله ﷺ وكاتب الوحى وأمه خيرة مولاة أم سَلَمَة زوج النبى ﷺ نشأ فى بيتها ، ولقى جماعة من الصحابة وسمع منهم .

من كلامه رحمه الله :

« يا بن آدم نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك وإن أنت أسأت إليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك » (٢) .

« المؤمن فى الصلاة خاشع ، وإلى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) البيان والتبيين .

تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم، إن أحسن استبشر،وإن أساء استغفر وإن سفه عليه حلم ، وإن ظلم صبر ، إن جير عليه عدل ،ولا يتعوذ بغير الله ولا يستعين إلا بالله،وقور فى الملأ،شكور فى الخلاء،قانع بالرزق،حامد على الرخاء، صابر على البلاء ،إن جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين وإن جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين. . .»،« يا بن آدم إنما أنت عدد فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك » .

إن الحسن البصرى رحمه الله نزل إلى أعماق المجتمع وصف أمراضه ، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق ، والناصح المشفق ،ولم يقتصر على الخطب والمواعظ التى كان يلقيها، بل كان يُعْنَى بتربية من يتصل به ويجالسه ، فكان جامعا بين الدعوة والإرشاد ، وبين التربية العلمية والتزكية الخلقية والروحية ، فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله ، وقد صدق عوام بن حوشب إذ قال « ما أشبه الحسن إلا بنبى أقام فى قومه ستين سنة يدعوهم إلى الله » .

اجتمعت القلوب على حبه والاعتراف بفضله ، فلما مات بالبصرة سنة مائة وعشرة للهجرة - وكان دفنه بعد صلاة الجمعة - تبع الناس كلهم جنازته ، واشتغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بالجامع لأنه لم يبق بالمسجد من يصلى العصر، قال بعضهم ممن شهد جنازته : « لا أعلم أن صلاة العصر تركَتْ فى الإسلام (يعنى فى جامع البصرة) إلا يومئذ » (١) .

قال رجل ليونس بن عبيد : « أتعلم أن أحدا عمل بعمل الحسن البصرى ؟ قال : والله لا أعرف أحدا يقول بقوله ،فكيف يعمل بمثل عمله ؟ » قال : «صفه لنا. قال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حَميمه،وكان إذا جلس فكأنه أسير قد أمِرَ بضرب عنقه وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له » (٢).

لقد كان كلامه رحمه الله قليله يغنيك عن كثيره،ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من الحكمة على حسن نية صاحبه

(١) ابن خلكان .

(٢) البيان والتبيين .

وتقوى قائله ، وكان المعنى شريفا ،واللفظ بليغا صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، منزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة . . . وأصحبه الله من التوفيق ، ومنحه من التأييد ما لا يمنع معه من تعظيمه صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمه معه عقل الجهلة .

وما أعظم الفرق بينه وبين رجل آخر يتكلم بكلام ضبابى بَاهت لا لون فيه ولا ملح ولا صورة ، وفوق هذا يكْرِه الناس على سَمْعِهِ ، ويتربص أوقات اجتماعهم وقت إقامة الصلوات ، أو قبيل تناول الطعام فى المأدبات . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :«حدث الناس ما لحظوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم، وإذا رأيت فترة فأمسك » (١) .

وقال مطرف بن عبد الله :« لا تطعم طعامك من لا يشتهيه ، ولا تُقبِل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه » .

وجعل السماك يوما يتكلم ، وجارية له تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها: « كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده . قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله من فهمه » (٢) .

وقال بعض الحكماء : « من لَمْ ينشط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك » .

وقال الزهرى ـ رحمه الله : « إعادة الحديث أشد من نقل الصخر » .

فعليك - تولى الله رشدك - من الكلام ما قل ودل واعلم أن الآى من القرآن يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع ، ولا خير فى كلام لا شىء من القرآن والحديث النبوى فيه .

استثارة العواطف :

السبب الأهم الذى يحفز الناس إلى السماع أو المشاهدة هو رغبتهم فيما له

(١-٢) انظر : البيان والتبيين .

علاقة بالعواطف والأحاسيس المعبر عنها . ومتى تكلمت إذن على ملأ من الناس فأنت تستولد من الإثارة والتفاعل بمقدار ما تضع فى حديثك منهما . فلا تكبت مشاعرك الحقيقية ولا تخنقها . . . لا تضع حاجزا فى وجه حماستك الصادقة ، أظهر للمستمعين حسن طويتك ، بين لهم إيمانك بالموضوع ، وثق بأنك إن فعلت هذا تظفر بانتباههم ورضاهم ، اظْهَرْ لهم بصورة المتشوق المتلهف لا كالرجل الذى يدنو من المشنقة . ارفع رأسك عاليا ، حاول أن يَرَنَّ صوتك فَتْرَدّدَ صَدَاهُ جنباتُ القاعة فالصوت هذا يشد عزيمتك،متى بدأت فى حركاتك ستشعر بالانتعاش والاندفاع ، والجدُ يستولد الجدَّ .

روى البزار بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحى أو وَعَظَ قلت : نذير أتاهم العذاب ،فإذا ذهب عنه رأيته أطلق الناس وجها أو أكثرهم تبسما وأحسنهم ، لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه » .

وكان ﷺ إذا خطب لا يخل ولا يمل،روى أبو داود عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هى كلمات يسيرات .

وكان ﷺ يتغير حاله عند الموعظة اهتماما وإعظاما ويعرف ذلك فى وجهه . روى مسلم فى صحيحه عن جابر ﷺ : كَانَ رسول الله ﷺ إذا خطب اشتد غضبه ، وعلا صوته ، واحمرت عيناه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم .

وكان ﷺ لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يتنازل عن شريعة الله إرضاء للناس أو السلطان لأنه ﷺ جعل رضى الله سبحانه وخشيته فى نفسه وكلامه هدفا وغاية سواء أرضَى الناسُ عليه أم سخطوا ، ويقول : « من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ، ومن أسخط الناس برضى الله كفاه الله مؤنة الناس » (١) .

القواعد المساعدة على بناء شعور من الود والألفة مع المستمعين :

بادئ ذى بدء ينبغى للداعية أن يعرف أحوال قومه فيخاطبهم بما يعنيهم ويُهِمُّهُمْ وحدهم ، وقد كان رسول الله ﷺ أعرف الناس بقومه وأحوالهم ولغاتهم

(١) رواه الترمذى وأبو نعيم .

وعقائدهم فى الجاهلية والإسلام وكذلك أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كان ﷺ يخاطب كل قوم بأحسن أسمائهم فيقول : « يا بنى عبد الله إن الله حَسَّنَ اسمكم واسم أبيكم » (١) .

تمشيا مع هذه السنة الزكية حاول - قبل أن تخاطب الجمهور أن تزور بلدتهم، وتعرج على محال كثيرة كدكان الحلاق ،و مركز البريد والفندق ، وتحاور ناظر المدرسة وعالم الدين ، ثم اختلط بالناس وكلمهم واستعلم منهم عن أحوالهم واتجاهاتهم ، فالاتصال بالناس عليه يتوقف نجاح الداعية لأن دعوته جزء من المستمعين ، ولأن المستمعين جزء من دعوته .

ومن القواعد التى تُوثق الصلات ، وتقرب بينك وبينهم وكأنك تعرفهم وكأنهم يعرفونك منذ سنين لا منذ ساعات هى كالتالى :

أولا: الحديث عن مصالحهم،وعما يطيب لهم ، ويعانون منه ليدركوا أن معرفتك أدركتهم ، وبلغت كنههم وحقيقتهم ، وأنك مهتم بأحوالهم ومشاكلهم وقضاياهم مما يسترعى انتباههم.

ثانيا: إظهار التقدير لهم والإعجاب بهم:فالإنسان مجبول على حب نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومتى أظهرت التقدير والإعجاب فتحت قلوبهم لحديثك، ومتى ابتدأت الناس بالنقد نفروا منك وأعاروك آذانا صماء ، وابتداء الناس بالنقد اللاذع من فظاظة القلب ، والله تعالى يقول لنبيه ﷺ ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ثالثاً: اللجوء إلى طريقة السؤال والجواب فمتى لجأت إليها وأشركت المستمعين فى كلمتك وأدمجتهم كَسَوْتَ الموضوع حيوية وتجديدا ولا بأس أن تكَونَ فريقا مؤيدا لك ، فإذا تحدثت عن تحريم الغناء وقدمت الأدلة الشرعية على تحريمه فاسأل أحدا من أهل العلم الحاضرين عن مشروعية أدلتك يكن لك من المؤيدين .

---

(١) زاد المعاد (باب الأسماء والكنى) .

رابعاً : التواضع لا التكبر: رغم ما قد تؤمن به من سعة اطلاعك، وطول باعك فاعلم أن فى المجلس عقولا نيرة تفكر مثل تفكيرك بل أكثر من تفكيرك ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٧٦] فكن متواضعا لا معتذرا ، وكن ممن يعترف بعيوبه وبنقصه المتعجرف الجاعل نفسه فوق الجميع، وفى نفس الوقت لا تغالى فى بخس حقك وإلا أُهِنْتَ وازْدُرِيتَ .

واعلم أن المتكلم الحصيف هو الذى يعبر بطريقة واضحة يفهمها المستمع ويعرف معناها بسرعة دون إجهاد للفكر، لقد بعث الله موسى بن عمران عليه السلام إلى فرعون وملئه لإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته ولما كانت هاته الأشياء تتطلب بلاغة بيان ، وفصاحة لسان ذكر كليم الله العقدة التى كانت فى لسانه ، والحبسة التى كانت فى بيانه فسأل الله حلها فقال: ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ [طه : ٢٧ ، ٢٨] لأن فرعون يتعلق بكل سبب ، ويستريح إلى كل شُعَبٍ كما يفعل كل جاحد معاند ، وكل محتال مكايد ، فأنبأنا الله تعالى بذلك فى محكم تنزيله بقوله : ﴿ **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ [الزخرف: ٥٢] ورغبة من موسى عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة ، لتكون الأعناق إليه أميل ، والعقول عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع سأل الله تعالى بأن يرسل هارون بمعيته فقال :﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي** ﴾ [القصص:٣٤] وقد أجاب الله دعوته ، وحل العقدة وأطلق الحبسة فى قوله سبحانه: ﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ** ﴾ [طه:٣٦] ولما كان لقريش بلاغة منطق ، وصحة عقل ، وقوة دهاء ومكر ، وبلاغة لسان ولدد عند الخصومة ما أكده القرآن فى قوله جل وعلا: ﴿ **فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾ [الأحزاب : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ **وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا** ﴾ [مريم:١٩] وقوله سبحانه : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ [البقرة:٢٠٤] وقوله تعالى: ﴿ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ [الزخرف:٥٨] ، ﴿**وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ** ﴾ [المنافقون : ٤] .

لَمَّا كان ذلك كذلك كان رسول الله ﷺ فى موقف أشد صعوبة وحرجاً من

موقف موسى عليه السلام فأمده الله بالقرآن العظيم الينبوع الذى لا يغيض ماؤه ، والشجرة التى لا ينقطع ثمرُهَا ،والجديد الذى لا تبلى جِدَّتُهُ، فقد ضرب الأمثال، وتفجرت منه ضروب الحكمة ، وقص من سيَر الغابرين وأخبار الماضين ، وبسط ذلك بروائع الأساليب المعجزة ، وبديع التراكيب الباهرة ما فيه عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وصدق الله تعالى القائل : ﴿ **وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** ﴾ [الفرقان:٣٣] ومع نعمة القرآن ومعجزة البيان فقد كان رسول الله ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يُجهل :سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانى ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخُص ببدائع الحكم ، وعلِم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، فنزل من هذا كله مرتبة لا يقاس بها غيره ، وحاز فيها سبقا لا يقدر قدره (١) .

فَحَاوِلْ - تولى الله رشدك - الحديث بالطريقة الواضحة التى لا تكلف فيها يقول أرسطو : « فَكِّرْ كما يفكر الرجل المجرب العالم ، ولكن تكلم كما يتكلم الرجل العادى » .

خامسا : اظفر بنعَمْ :

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران:٦٤] إنها قاعدة اتفاق مشتركة ينبغى اعتمادها كطريقة فعالة فى بدء الجدال والفوز فيه ، فالمُحاور الناجحُ يكسب تأييد مناوئيه فى الدقائق الأولى،ومن ثم يبدأ فى استدراجهم شيئا فشيئا ، ثم لا يلبث أن يضعهم فى شركه ويُوقِعَهُم فيه ، وإذا ما اعتمد المحاور طريقة الجدال مع المستمعين فإنه يثير عنادهم ، ويضعهم فى موقف الدفاع وبالتالى يبعد كل أمل فى تغيير رأيهم وموقفهم ، لذا كان من الأفضل أن يبدأ بالأمر المتفق عليه ثم يطرح سؤالا يَوَد الجميع لو أجابوا عليه ، ولا شك أن أفضل المجادلات هى التى تكتسى طابع التفسير والشرح فى جو هادئ تزينه

(١) الشفا ص١٦٧ .

ابتسامة المحاضر وطلاقة وجهه وبشاشة قسَمَاته ، فالآراء بحد ذاتها لا تهمنا بقدر ما يهمنا احترام الذات فالأفكار تتضارب ، ولا بأس أن نقاوم بلطف حتى إذا قيل لنا بأننا مخطئون . « فرأيى صواب يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب ، ولنتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » .

سادساً : أظهر الاحترام والاعتراز :

الشخصية الإنسانية تطلب الحب،وتطالب بالاحترام ، وفى قرارة كل كائن من أبناء البشر اعتقاد باطنى بأن له قيمة وأهمية وكرامة ولذلك قال الله تعالى لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ [طه:٤٤] مع علمه تعالى أنه لن يتذكر ولن يخشى وعلمه بفطرة خلقه التى فطَرَهُ عليها ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك :١٤] . وقديما قال أبو العتاهية :

كل امرئ فى نفسه أعلى وأشرف من قرينه

فمتى جَرَحْتُ هذا الشعور خسرت الشخص إلى الأبد ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] مع كونه رسولا نبيًا ، فالبغض يولد الشرور الكامنة فى ذات الإنسان فيرفض كل جميل إذا صدر ممن يكرهه ، ويستحسن كل قبيح إذا صدر ممن يُحبه ويهواه . لسان حاله يقول :

وإذا كرهْتُ فتى كرهت حديثه وإذا سمعت غِناءَهُ لَمْ أُطْرَبِ

ومتى أحْبَبْتَ شخصا واحترمته فأنت بذلك تَبنيه ، وفى مقابل ذلك يشعر هو نحوك بالحب والاحترام .

إن الخلاف فى أغلب الأحيان ينبعث من تشبث كل ذى رأى برأيه ، وهذا إذا قيس بنواحى الاتفاق تضاءل واختفى عن العيَان . فليتنا نذكر هذه الحقيقة دائما . ولا شك أن إغفالنا لهذه الحقيقة مرده إلى ضيقَ ذرعِنا ، ونفاذ صبرنا ومعلوم أن الإسلام عقيدة وشريعة اتسع للأفكار والمذاهب والآراء تجلت فى المذاهب الفقهية والفلسفة الإسلامية وعلم الكلام .

سابعًا : تكلم بطريقة طبيعية :

تكلم بالصوت كما خلقه الله فيك ، وكن طبيعيا ومتى تكلمت على سجيتك كنت متكلما ناجحا ، فلا تحاول تقليد الآخر فإن لكل إنسان فرديته وذاتيته ، وإذا وجد الخطيب أو القارئ نفسه يتكلم بتكلف فليتوقف وهلة ، وليقل لنفسه زاجرا: « ويلك ماذا انتابك يا هذا ؟ » ثم اختر شخصا ما من المجتمعين منصتا منتبها ووجه كلامك إليه ، انس أن فى الجمع إنسانا غيره ، حدثه ، تصور أنه طرح عليك سؤالا وأنك تجيب على سؤاله ، وأن لا أحد يستطيع أن يجيب .

ثامنًا : تجرد من الوسواس وضع قلبك فى حديثك :

أعنى بهذا إشعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره ، واتقاءه فى زواجره ، وإلزامها ما ألزم من طاعته ، وتحذيرها ما حذر من معصيته ، وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ، ولا يعزب عنه قطمير ، بيده مقاليد السموات والأرض يقلب القلوب كيف يشاء ومتى شاء ، فاستعن به وتوكل عليه ، وفوض أمرك إليه سائلاً الثبات والسداد والتوفيق والرشاد . ولا بأس من تلاوة آيات بينات وأدعية نبوية تحفظك من الوسواس ، وعيون السوء ، وجميع الشرور ، وهى كالتالى :

ـ اقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات والمعوذتين والفاتحة وآية الكرسى ، ثم قل بعد ذلك :

ـ بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (ثلاث مرات) .

ـ أعوذ بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامة وكل عين لامة (ثلاث مرات) .

ـ اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا .

ـ اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغر ما بى .

ـ اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم .

ـ يا قديم الإحسان ، يا من إحسانه فوق كل إحسان ، يا مالك الدنيا والآخرة، ياحى يا قيوم ، يا ذا الجلال والأكرام ، يا من لا يعجزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء انصرنا على أعدائنا هؤلاء وغيرهم ، وأظهرنا عليهم فى عاقبة وسلامة عامة عاجلا .

ـ رب أعنى ولا تعن على ، وانصرنى ولا تنصر على ، وامكر لى ولا تمكر على ، واهدنى ، ويسر الهدى لى ، وانصرنى على من بغى على ، ربى اجعلنى لك شاكرا ذاكرا لك راهبا لك ، مطواعا إليك ، مخبتا ومنيبا ، تقبل توبتى ، واغسل حوبتى ، وأجب دعوتى ، وثبت حجتى ، واهد قلبى ، وسدد لسانى واسلل سخيمة قلبى (١) .

ـ أعوذ بوجه الله العظيم الذى لا شيء أعظم منه ، وبكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وأسماء الله الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر كل ذى شر لا أطيق شره ، ومن شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته إن ربى على صراط مستقيم .

ـ اللهم أنت ربى لا اله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا حول ولا قوة إلا بالله ، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم .

ـ تحصنت بالله الذى لا اله الا هو ، الهى وإله كل شيء ، واعتصمت بربى ورب كل شيء ، وتوكلت على الحى الذى لا يموت ، واستدفعت الشر بلا حول ولا قوة إلا بالله حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوق ، حسبى الرازق من المرزوق ، حسبى الذى هو حسبى ، حسبى الذى بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، حسبى الله وكفى، سمع الله لمن دعا . ليس وراء الله مرمى ، حسبى الله لا اله الا هو ،

(١) هذه ،ادعية نبوية مأثورة وصحيحة .

عليه توكلت وهو رب العرش العظيم [١] .

ومن جرب هذه الدعوات والعوذ عرف مقدار منفعتها ، وشدة الحاجة إليها ، وهى تمنع وصول أثر العائن ـ والوسواس والخجل والخوف ـ وتدفعه بعد وصوله وقبل وصوله بحسب قوة إيمان قائلها ، ويقينه بها ، وقوة نفسه واستعداد وقوة توكله وثبات قلبه ، فإنها سلاح والسلاح بضاربه .

والإخلاص والحماسة يساعدانك متى كنت واقعا تحت تأثير مشاعرك ، وسوف تتكلم عفويا وتتصرف عفويا بإذن الله تعالى ، فقدم جواهر كلامك فى قالب جذاب نافذ فعال لتتقى ملل المستمعين ، وضع لسانك بين قلبك وعقلك ، ولا تفكر بوجل وخوف فيما تزمع أن تقول ، ولا تطنب فى الثناء ، ولا تبخس فى الحق وكن وسطا بينهما .

كن ودودا وأنت تخاطب ، وبدلا من الإعراب عن السرور العظيم ، أظهر السرور العظيم ، وإن كنت مقدم برنامج ما أو نشاط معين فى حفل ما فاصمت لحظة قبل التلفظ باسم المحاضرة ، وقل الاسم بحماسة فيها أدب وتواضع ولا تبدأ بإهانة توجهها إلى المستمعين ، أو بالتلميح الى معان تتسم بالاستخفاف ، ولا تفتتح حديثك باعتذار يسد أمامك الطريق كالنقص فى الإعداد أو العجز والإفتقار إلى المقدرة . فإن كنت غير مستعد فالناس تكتشف ذلك بنفسها فلا تساعد الناس على اكتشاف قصورك ونقصك ، ولا تهنهم تلميحا وكأنك تقول لهم : « لم أجدكم أهلا لأبذل الجهد فى الاستعداد والإعداد » .

وإن كنت قادرا على دغدغة نزعة المرح فافعل ولكن فافعل ولكن برقة ومهارة، ولك أن تبدأ ـ إن شئت ـ بنادرة متصلة بشخصك ، فالناس تفتح قلوبها وعقولها للمتكلم الذى يخفض من درجته أمامهم بنادرة تظهر جهلا ما ، ولكن بأسلوب مرح ظريف ، وإياك والإسراف فى إظهار الرزانة والوقار فإنه من التصنع ويعود على متكلفه بالضرر .

واستعن بالإحصائيات فإن لها وقعا مؤكدًا على النفوس .

---

(١) زاد المعاد ٤/ ١٦٩ .

واستعن بشهادة الخبراء المعروفين المحترمين ، وامسك حديثك من تلابيبه ومجامعه . كما تمسك الثور من ذيله لا بقرنه . فكن على علم بمقدمة الكلام وعرضه وخاتمته ، ولخص أقوالك ، فقد تنساق مع حديث طويل يعجز المستمع عن متابعته وجمع خيوطه ، فلا تظنن بإحاطتك بجوانب الموضوع واستيعابك له أن المستمعين استوعبوه وأحاطوا به ، فإنك قد قتلته بحثا وتهيئا قبل إلقائه بينما المستمع لم يعره أدنى تفكير .

وأخيرا ثق بنفسك وكن على يقين بأنك ناجح ، واشدد عزمك بإصرار ، واعلم أنك إن عزمت نلت نصف المبتغى ، فأول الغيث القطر ، وأول النجاح الصبر ، واعلم أن قيادة المجالس والمحافل تطلب من صاحبها القوة فى التعبير ، والوضوح فى التذكير ، وإثارة العواطف ، واسترعاء الانتباه ، ومن المستحيل أن تكون القيادة بالتسلط والتعسف والعنف ، وإنما بالكلام الطيب والمبادرة الجميلة وبكل ما تقوم دعائمه على المحبة والإنسانية والإيمان بأن الناس أرواح طيبة سامية لا أشباح تحركها نوازع الشر.